الثقافة والمجتمع

الثقافة اصطلاح مرن مترامى الحدود كثير الجوانب ، ولكنى سأقصره هنا على ناحيتين هما فى رأيى واعتقادى أبرز معانيه وأقربها إلى جوهره ، وهاتان الناحيتان هما الفن والعلم . والفن قوامه الخلق وهو بوجه عام عمل ذاتى مرده إلى شخصية الفنان ومزاجه ومدى إحساسه بالحياة ونظراته الخاصة لها . والعلم مجاله كشف أسرار الطبيعة المجهولة ومعرفة قوانينها الخفية المستورة ، وهو فى جوهره عمل موضوعى ينسى فيه العالم نفسه وينسرح من ميوله وأهوائه .

والعلاقة بين الفنان والمجتمع لها جانبها الاقتصادى الذى يخضع لقانون العرض والطلب والإنتاج والاستهلاك . والفنان من حيث هو فرد يعيش فى بيئة اجتماعية خاصة . فمن شأن هذه البيئة أن تؤثر فيه وتهذبه وتصقله وتطبعه بطابعها وتسبغ عليه مميزاتها وخصائصها وتفرض عليه تقاليدها ومألوف عاداتها ، وقد تستفزه إلى المقاومة والمعارضة وإلى أن يقف منها موقف التحدى والمناجزة ، وقد ينقاد لها ويساير أهواءها ونزعاتها ويديم التغنى بمحاسنها وأمجادها والإشادة بمواقفها وآثارها ، وهى فى الحالتين توجه جهوده وتملى عليه خططه واتجاهاته وتفرض عليه مذاهبه . وسواء كانت هذه البيئة مجتمعاً أرستقراطيًّا أو قبيلة بدوية أو مجتمعاً ديمقراطيًّا فإنها ستكون الوسط الذى ينشأ فيه فنه وتتكون فلسفة حياته ويستمد منه تجاربه وموضوعاته وتتفتح فيه عبقريته ، فهو يحتم اختياره للموضوعات وكيفية معالجته لها ، والعمل الفنى لا يتأثر بالنبع الذى ينبثق منه فحسب بل يتأثر كذلك بالغرض الذى يهدف إليه الفنان ويتجه صوبه ،

وبميول الجمهور الذى بتوخى مرضاته والتقرب منه ، ولا نزاع فى أن حماة الفنون ورعاة الأدب وأنصار الشعر فى العصور السالفة كان لهم أثر كبير فى توجيه الأدب والفن والنهوض بالشعر وإنمائه وازدهاره ، فشاعر كالمتنبى مثلاً مدين بإنتاجه إلى حد ما لسيف الدولة وما أحسبه كان يبالغ فى قوله مادحاً له :

لك الحمد فى الدر الذى لى لفظه فإنك معطيـــــه وإنى ناظم

ومن الحوافز التى حفزت المتنبى إلى الإجادة فى شعره وتحرى الروعة والفخامة وإظهار التمكن فى اللغة والقدرة على التصرف فى المعانى أن سيف الدولة نفسه كان أديباً متمكناً بارع الناقدة قوى الملاحظة حسن التذوق لفنون الأدب ، وكان المتنبى يحشد قريحته ويكد خاطره ويسهر جفنه ليرتفع إلى المستوى الذى يرضى ممدوحه الذى يعيش فى كنف زعامته ويستذرى بظل سلطانه .

ولقد ازدهر الشعر فى صدر الدولة العباسية ازدهاراً عظيماً . ووجدت العبقريات الشعرية التى شرفت هذا العصر ورفعت من شأنه وخلدت حوادثه ورجاله الحيز المناسب لتفتحها ونمائها وبلوغها ذروة الإجادة والإتقان . ومن أقوى الأسباب التى ساعدت على ذلك وجود أرستقراطيتين متنافستين ، الأرستقراطية الفارسية الناشئة التى مكنت لها الدولة العباسية وفسحت المجال لظهورها والأرستقراطية العربية التى أخذت تشعر بشدة وطأة المنافسة وتعمل جاهدة على استبقاء نفوذها المتداعى ودولتها الذائلة .

والناقد الذى يقتصر على دراسة الشاعر أو الكاتب من حيث علاقته بسائر الشعراء أو الكاتب وتأثره بهم ويفصله عن الحركة التاريخية السائدة فى عصره وأحوال المجتمع الذى يعيش به ولا يتناول تأثيرها فى فنه وصناعته تغيب عنه أشياء كثيرة . ومن ثم كان التناول التاريخى الاجتماعى للفن والأدب من الأمور

الهامة . وقد لاحظ ذلك الناقد الإنجليزى كورتهوب فى قوله : «يسود الظن بأن لباب الشعر هو الوحى الذى ينتزل على الشاعر الفرد ، وأن منابع هذا الوحى من وراء منال البحث الانتقادى ، ولكن برغم ذلك فإنه فى مختلف الفنون سرعان ما يدرك الطالب أن هؤلاء الذين يريدون التفوق لا مناص لهم من مراعاة ظروف لم يخلقوها وليس لهم عليها سوى سيطرة جزئية ، وقد اعترف بذلك كل فنان عظيم . فالشاعر هو من بعض الوجوه خلاصة الحياة الخيالية لعصره وأمته . وفى الحق أنه يمكن أن يقال إن ما يسمى مادته الخام — فكره وخياله وشعوره — يتعاون أفراد أمته معه فى عمله وتكوينه . . . والقصيدة العظيمة هى فى الحقيقة صورة للشعور القومى . والحياة الداخلية للأمة ليست أقل انعكاساً وظهوراً فى الشعر منها فى مظاهر نموها الخارجى كأعمالها القانونية المجيدة أو تجارتها أو أسلحتها ومجالى قوتها» .

ولا نزاع فى أن محتويات الأدب ومشتملات الفن وموضوعات القصائد والروايات مستمدة إلى حد كبير من البيئة الاجتماعية ، وإن كان للصور الأدبية والفنية تطور داخلى خاص خاضع لمنطقها ، ولكن هذا التطور نفسه يتأثر وينفعل بالتغيرات العامة التى تطرأ على المجتمع . فالحياة السياسية والاجتماعية فى العصر الأموى مثلاً ساعدت على تطور فن الهجاء فى الأدب العربى ، والحياة الاجتماعية فى الأندلس مهدت السبيل للتجديد فى صور الشعر وأعانت على ظهور الموشحات الأندلسية وتأثير البيئة الاجتماعية فى الصناعة الفنية من الموضوعات الطريفة التى لم تستوف بعد نصيبها من البحث والتنقيب والشرح والتعليل فى مختلف آداب الأمم ، ويعنى بها فى العصر الحاضر بوجه خاص النقاد الماركسيون ويبدون فيها ملاحظات قيمة ويقدمون معلومات ثمينة لولا ما يفسد عليهم أمرهم من النظر إلى المسألة من جانب واحد ، فإنه لا يكفى لتقدير الآثار

الأدبية والفنية النظر إلى قيمتها من الناحية الاجتماعية وحدها ، ولقوة التعبير وبلاغة الأداء وجودة البناء دخل كبير فى جمال الآثار الفنية والأدبية وخلودها . والنظرة إلى الأدب والفن من الناحية الاجتماعية ترشد وتجدى إذا نظرنا إلى الأدب والفن من ناحية كلية عامة حيث يظهر تأثرهما بالتيارات السياسية والاجتماعية العامة ، ولكن فى الحكم على الأثر الفنى أو الأدبى الخاص لامناص من الاستعانة بالمقاييس الأدبية الخالصة والفنية المحضة ؛ ومن ثم كان للماركسية أثر محمود فى النظر إلى تاريخ الأدب بوجه عام ، أما من ناحية النقد البيانى وتقدير العمل الفردى فكثيراً ما يختل ميزانها وتنحرف عن الجادة . وحرية الفنان فى الإنتاج ليست مطلقة ولهـا بطبيعة الحال حدود تقف عندها ولاتتخطاها إلا إذا أصبح الفن فوضى لانظام له ولاقانون ، وهو أمر لايتفق مع طبيعة الفنون القائمة على النظام والتناسق . ولا مفر للشاعر من أن يعمل فى حدود ممكنات اللغة وقواعد النحو وأصول البيان ، كما أن الفنان لا مفر له من العمل فى حدود ممكنات مواده ومقتضيات الجو الذى يعيش به . وتتجلى البراعة الفنية فى جعل المواد ملائمة للغرض ، وكذلك فى جعل الغرض نفسه ملائماً للمواد ، ولكن هذه العقبات التى تعترض حرية الفنان وتخضعه لضروراتها مستقلة استقلالاً تاماً عن النظم السياسية والاجتماعية .

وهناك ناحية هامة يؤثر بها بناء المجتمع فى التعبير عن النزعة الفنية تأثيراً مباشراً ، فقد تكون عبقرية الفنان فردية بطبيعتها فتظهر فى الشعر الغنائى أو فى فن التصوير وقد تكون عبقرية اجتماعية فى أساسها فتتجلى فى الدراما والرواية أو فى فن العمارة والبناء . ومجال الدراما والمعمار يستلزم نوعاً من التعاون الاجتماعى ، والجماعات المتماسكة الشديدة الشعور بكيانها والاعتزاز بشخصيتها تؤثر هذا اللون من ألوان الفن لأنه أوضح تعبيراً عن ميولها وأهوائها وأدخل للسرور على قلبها

وأبعث على التسرية عنها . وقد كانت القبيلة العربية - وهى شبيهة بالوحدة المتماسكة - تعد الشاعر قلبها النابض ولسانها الناطق ، فعمله الذود بشعره عن حياضها والمنافحة عن أعراضها ونشر مطوى مفاخرها وإذاعة مجهول فضائلها . وكان الشاعر يقدر خطورة موقفه وأهمية رسالته فيعرض عن وصف مشاعره الخاصة والتعبير عن ميوله ونوازعه ، ويتخذ من شعره أداة للتعبير عن وجهة نظر القبيلة والإعراب عن آمالها ومخاوفها وتطلعاتها ومراغبها . ولذا كثر فى الشعر العربى الوصف الدراماتيكى للحوادث والرجال وتحليل أخلاقهم والإشادة بمواقفهم ، وقلت فيه المناجاة الخفية والهمسات النفسية . وبعض كبار شعراء العرب كانوا يفرضون أنفسهم فرضاً على ممدوحيهم فيتحدثون عن أنفسهم ويصفون عواطفهم فى خلال التحدث عن فضائل ممدوحيهم والتغنى بمحامدهم ومناقبهم . والمتنبى من أسبقهم فى هذا الميدان ، فهو لا ينسى نفسه فى خلال وصفه الدراماتيكى البارع لمواقف سيف الدولة وغيره من ممدوحيه ويقحم نفسه إقحاماً ، ولذا يتوافر فى شعره العنصر الغنائى الشخصى والعنصر الدراماتيكى الوصفى ، ولعل هذا من أسباب شدة الإقبال على شعره وكثرة التعلق به .

وقد ساعدت أسباب الحياة فى المدن اليونانية القديمة على ظهور كتاب الدراما العظماء ، وكذلك حياة الإنجليز فى عهد الملكة اليصابات ، وكذلك حياة النرويج فى القرن التاسع عشر ، ولا تكفى المصادفة وحدها لتفسير ظهور مثل شكسبير وأضرابه وإبسن وأنداده . وأى إلمام يسير بالحالة السياسية والاجتماعية فى إنجلترا فى عصر شكسبير أو بحالة النرويج فى أيام إبسن تبين أن ظهورهما وذيوع أدبيهما كان منطقياً مع اتجاه عصريهما وأحوالها الاجتماعية والسياسية .

وفى عصر إحياء العلوم فى إيطاليا قويت النزعة الفردية ، وكان ذلك عصر

الشخصيات الجبارة المختالة الشديدة الأثرة النزاعة إلى الفوضوية والتحلل من القيود ، ولذا كثر الإقبال على الشعر والتصوير . وساد فى إنجلترا فى أوائل القرن التاسع عشر مذهب الحرية الفردية والمنافسة المنطلقة من القيود وترك الحبل على الغارب فى الشئون الاقتصادية ، فاستتبع ذلك نهوض الشعر الغنائى . فالمجتمع الشديد شعور بوحدته وتماسكه يشجع بطريقة غير واعية الفنان الذى يميل إلى التعبير عن نفسه فى الفنون التى تحتاج إلى التعاون والمشاركة مثل الدراما وفن البناء أى أنه يشجع ما يصح أن نسميه « العبقرية الاجتماعية » . أما المجتمع الذى يفترق فيه الأفراد شيعاً وأحزاباً ويقل فيه التماسك قلة نسبية فهو ربما كان أكثر تشجيعاً للعبقرية الفردية التى تتجلى فى الشعر ، وبخاصة الشعر الغنائى وفن التصوير .

وأظن أن تأثير البيئة لا يبلغ من نفس الفنان أبعد من ذلك المدى ، وما دام الفنان قد رزق البصيرة الفنية فإنها ستنفذ من خلال غواشى بيئته وعصره إلى الحقائق الخالدة . وإذا كان فى نفسه اللهب المقدس فإن هذا اللهب سيتوهج وتتألق أنواره مهما كانت أحوال الزمن وظروف البيئة ، فاللون المحلى لا ينفى الوحى العلوى ولا يطفئ الشرارة المقدسة . وليس من اللازم أن يكون الفنان مستجيباً لعصره ، فإذا كان هناك ملاءمة واتفاق بين الفنان وعصره جاء شعره معبراً عن هذا الاتساق وروح العصر ويكون إلى حد كبير ممثلا لعصره . وإذ لم يكن متفقاً مع عصره جاء شعره حزيناً ثائراً حافلاً بالألم والشكوى والغضب والنقمة وليس فيه فكاهة وإنما فيه هجاء مر . والمهم هو صدق الإحساس والأمانة فى التعبير ، وهذا يتوقف على الفنان لا على البيئة أو العصر .

وكان من المحتمل أن يكون للحياة الكلية المتماسكة فى إيطاليا الفاشية أو فى ألمانيا النازية تأثير ملحوظ فى تشجيع الفنون القائمة على العبقرية الاجتماعية ،

ولكن هذين النظامين وقعا فى خطأ خطير ، وهو محاولتهما أن يمليا على الفنان طبيعة عواطفه وأن يفرضاها عليه فرضاً ، وأن يخضعا الثقافة بوجه عام لحدود سياستهما ، فكان أى فن لا يلائم عقيدة موسلينى أو مذهب الآرية يمنع ويقاوم ويضطهد صاحبه . والخلق الفنى بطبيعته ليس من الأشياء التى يمكن وضعها تحت سيطرة الديكتاتور وإخضاعها لنزواته وأهوائه ، وقد استهدفت الفنون التى تحتاج إلى التعاون والمشاركة لهذه السيطرة الديكتاتورية البغيضة . وذلك لأن الدراما والسينما والآداب لها تأثير اجتماعى عظيم ، ولذا عملت الفاشية والنازية على تسخيرها للدعاية ، وهذا التسخير عرض نزاهة الفنان وإخلاصه لنفسه للخطر الشديد . وقد أفسدت مقتضيات الدعاية هذه الفنون ولذا لوحظ تأخرها وجمودها فى ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية . والفن يتأثر بالمجتمع بطريقة غير واعية لا عن طريق القسر والإرغام والاستعباد والطغيان .

وحاول الشيوعيون فى روسيا أن يسيطروا على الفنون ، ولكن كان يلطف من حدة هذه السيطرة الشعور المتفزز بمجتمع جديد ابتعثته تجربة الشيوعية . وقد أعفى الفنان من المهام المادية ليفرغ لفنه وإنماء ملكاته ومواهبه ، ومفروض أنه الوسيط بين فنه وبين الجمهور أو الشعب . ولكن الاستقلال الاقتصادى شىء والمحافظة على النزاهة الفنية شىء آخر . وكما أن الفنان قد يذهب ضحية لنظام المباراة الحرة ، فكذلك قد يذهب ضحية لعبودية الدولة ومحاولتها السيطرة على كل شىء وتوجيهه الوجهة التى تلائم مصلحتها وتحقق غايتها . وقد تتعارض غاية الدولة وغاية الفن كما تعارضت غاية الدين وغاية الفن فى بعض الأزمنة السالفة ، والفن هو الخاسر والمجنى عليه فى الحالتين .

وهذا ينقلنا إلى مسألة أخرى ، وهى : إلى أى حد يتأثر الفنان بجمهوره ؟ فإذا فرضنا أنه الوسيط بين الجمهور والفن فإن عليه أن يراعى ما يريده الناس

وما يستطيعون فهمه ، ومن الصعب أن نحكم أى الحالين أهون ضرراً أن يكون الفنان مضطراً إلى إرضاء الجمهور أو أن يكون فى رعاية فرد من النبلاء أو أمير من الأمراء مثل كتاب الرومان وشعراء العرب ورجال الأدب فى القرن الثامن عشر ، وقد يستمتع الفنان فى حمى الأمير بحرية أوسع وإن كان قد يستهدف كذلك لشذوذه ونزواته ، كما أن اضطرار الفنان إلى ترضى ذوق الجمهور الحابط قد يعرقل فنه ويعصف بملكاته ، وقد يكون انتماء الفنان إلى حزب من الأحزاب السياسية أو شيعة من الشيع الدينية من أشد القيود التى تعوقه عن السير المستقيم والوثبات البعيدة ، والتعميم هنا لا يخلو من الخطر ، لأن الأمر يتوقف على ملابسات شتى ، وإذا كان معنى الخضوع للذوق العام هو الاستسلام للتقاليد الجامدة والعادات الراكدة فإن فى ذلك مضيعة للفن .

والفنان بوجه عام محتاج إلى الجمهور لا لأسباب اقتصادية — وإن كان للأسباب الاقتصادية شأن يذكر — وإنما لأن الفن اجتماعى الغاية قبل كل شىء . وبعض الفنانين يهمهم الاعتراف بقيمتهم وتقدير فنهم أكثر مما يهمهم المثوبة والجزاء المادى ولو أنهم يشعرون بامتزاج العاملين ، وتقدير المعاصرين وإقبالهم وإعجابهم قد يكون عاملا فى تقوية ثقة الفنان بنفسه وباعثاً لقواه الخالقة على خلق جديد وعنصراً مهماً فى تقدم فنه وترقى صناعته .

وتجربة الفنان ليست حقيقة مفروغاً منها مجهزة تامة ، وإنما هى حقيقة فى دور التفاعل والتكوين يلتمس بها الفنان خير أساليب التعبير ، وقد تستكمل التجربة عناصرها وتستتم صورتها فى خلال عملية التعبير عنها ، فهى صورة مستخلصة من التجارب المعهودة والحياة الواقعة يلعب فيها المجتمع دوره ويؤثر تأثيره . والتعبير عنها كذلك مستهدف لضغط الممكنات المادية والتقاليد والبيئة الاجتماعية والرأى العام . وإذا كان العمل الفنى له قيمة اجتماعية فلا مناص من

أن يتم انتاجه ويكمل تكوينه تحت ضغط المجتمع وتقاليده ، وهذا جزء من جوهره لا ينفصل عنه ولا يفارقه .

والعلاقة بين المجتمع والجانب الآخر من جوانب الثقافة الذى أسميته « العلم » أبسط من ذلك بكثير ، فالعلم كما قدمت كشف لاخلق ، وموضوعى لاذاتى ، فهو من ثم مجهود تعاونى يتطلب المشاركة والتساند ، وهو أكثر نفعية من الفن لا لأن كل ضروب العلم تدر النفع المباشر وتجىء بالفائدة العاجلة ، فإن هناك علوماً لا تفيد فائدة مباشرة مثل الرياضة والفلك ، وهى تستلزم نزاهة فى البحث مثل الفنون ولكن العلم نفعى بمعنى أن المجتمع يميل إلى الاستفادة من المعرفة الفنية واستغلالها ليريح نفسه من الجهود وليحسن استثمار الموارد المادية ويمكن لكيانه المادى ، ومن ثم يختص المجتمع العلماء بنصيب أوفى من التوقير والاحترام ويضعهم فى مركز أسمى من الفنانين ولا يضن عليهم بالمال أو التشجيع .

ولكن العلم مثل الفن يتوقف تقدمه على العلاقة المتبادلة بين النبوغ الفردى والمجتمع ، لأن سبيل العلم هو الفرض النظرى الذى يعرض للتجربة العلمية ، والفرض النظرى هذا هو مجال النبوغ الفردى ، والعناصر المختلفة التى تمتزج فى عقل العالم العظيم لخلق مثل هذا الفرض قد تستمد من موارد كثيرة فى الجو العلمى السائد والبيئة الفكرية العامة ، ولكن التجربة العلمية هى مجال التعاون والمشاركة . وشعور المجتمع الحديث بالفوائد المستمدة من العلم أقوى من شعوره بالفوائد المستمدة من الفن ، ولذا يعنى بالعلماء أكثر من عنايته بالفنانين . وهذا مصدر قوة العلم الاقتصادية فى العصر الحديث . ولكنها فى الوقت نفسه مصدر ضعف له من الناحية الثقافيه ، لأن ذلك معناه أن النزاهة العلمية أكثر استهدافاً لدوافع الربح وأهواج السياسة .

وخلاصة القول أن وحي الفنان أو بداهة العالم اللماحة الكاشفة من مسائل العبقرية الفردية ، ولكن خلق الفنان واكتشافات العالم واختراعات المخترع من المسائل الاجتماعية التعاونية مع اختلاف النسب وتفاوتها . وهذا التعاون يربط الفرد بالمجتمع . فكلما كانت الروابط الاجتماعية من المرونة واللين بحيث تسمح بظهور التنوعات الفردية وتحتملها وتوسع لها صدرها تقدم الفن وارتقى العلم . أما إذا كانت الروابط الاجتماعية من الصلابة والإحكام بحيث لا تسمح بالتنوعات الفردية وتضيق بها وتعمل على محاربتها فهنا يتعطل الفن ويقف تقدم العلم . والعالم والفنان كلاهما فى حاجة ماسة إلى حياة اجتماعية سرية ممتلئة حافلة ومجتمع متجانس ولكنه متعدد الجوانب مستقر النظم . وكلما كان المجتمع شريكاً فى العلم وشريكاً فى الفن وشريكاً فى كل فضيلة وكل امتياز تقدم العلم وترقى الفن وسما المجتمع . والنظام الذى يقاوم نزاهة العلم وإخلاص الفنان يهبط بالعلم وبالفن وبالمجتمع .